قضايا في العمارة العراقية:
العمارة بصفتها منجزاً ثقافياً

(٢/٢)

د. خالد السلطاني

مع الاخذ بنظر الاعتبار تشعب وضخامة الارث السلبي، مع توقع وفرة القضايا المهنية القادمة، التي يتعين ان تتعاطى معها الفعالية المعمارية المحلية؛ فإن الاخيرة، في اعتقادنا ليست مؤهلة تماماً لحل جميع تلك الإشكالات بصورة كفوءة ومتقنة، وهذا الاقرار لا ينبغي ان يسبب حرجاً لاحد؛ كما انه لا يقلل من شأن إنجاز الفعالية المعمارية المحلية واجباً. وهذا النزوع المهني يتعين فهمه وادراكه ضمن سياقه التاريخي، من دون خشية او توجس في التقليل من نديتنا تجاه الآخر وإنجازاته مع التذكير بان مثل هذه الممارسة عدت سابقاً وتعد الان امراً مشروعاً وعادياً في المشهد المعماري العالمي. و "الآخر" هنا يشمل النشاط المعماري القريب جغرافياً من بلدنا والمجاور له، وحتى البعيد عنه. ففي ظلال مواصلة غياب المعرفة الحقيقية بالآخر المهني التي اتبعها النظام الشمولي، وسياسته الفجة في غلق ابواب المعرفة وسد نوافذها عن بلدنا التي زاولها طيلة عقود، انقطعت الممارسة المعمارية المحلية عن متابعة انجازات الاخرين، او التعرف عليها مما الحق مزيداً من الضرر والاذى بنوعية الناتج المعماري المحلي، وساهم في ابطائه وتراجعه؛ علماً ان كثيراً من القضايا المهنية التي جابهتها الفعالية المعمارية عندنا، قد يكون (الاخر) وجد لها حلولاً مقنعة، مما يجعل من من مساعي التعرف عليها مسبقاً امراً ايجابياً، يكفل اثراء نوعية الحلول التي تعاطت معها الفعالية المعمارية المحلية، ويضمن تعزيز طيف مقارباتها التصميمية.

ومع اقرارنا باننا جزء من منطقة جغرافية متجانسة ثقافياً ومناخياً، اضافة الى انتمائنا القومي، فأننا مع الاسف لا نعرف كثيراً عن منجزات الاخرين المعمارية، سواء القريبين منا او البعيدين نوعا ما، وبشكل عام فإن معرفتنا ناقصة لإنجازات اشقائنا في لبنان مثلاً، او في بلدان الخليج القريبة، او في الاردن او في مصر فضلاً عن عدم احاطتنا بشكل تام عما يجري في الممارسة المعمارية بتونس او في المغرب. ويظل قصورنا فيما يخص عدم الاطلاع على النشاط المعماري في تركيا او في ايران، في باكستان او في الهند او في بانغلاديش وغيرها من البلدان التي تتصدى عمارتهم باستمرار لذات المشاكل التي تواجه الفعالية المعمارية عندنا، من حيث تأمين سكان مناسب وسريع وصحي واقتصادي او في توفير فضاءات كفوءة ومميزة لاداء حضور ثقافة معرفة (ألاخر) وتغلغل ذلك الحضور في نسيج وسياقات العمل المعماري المحلي، لا يمكنه ان يقتصر على حقيقة مراكمة الحلول، واستظهار الاجوبة الصحيحة التي انتجتها ممارسات (الآخر) المعمارية فحسب وانما يظل الهاجس الاساسي لشيوع وتكريس ذلك الحضور مرتهناً في امكانية الاحاطة والالمام بجوهر وماهية المقاربات المعمارية ذاتها، تلك المقاربات التي ينطوي عملها على استيلاد دائم لحلول تكوينية واستجابات تصميمية متنوعة!

واذ نحن بصدد اعمار (الآخر) وامكانية مشاركته في النشاط المعماري العراقي المستقبلي نشير الى خيار دعوة المعماريين العالميين للمساهمة في تقصي اجابات لمشاكل العراق العمرانية ويتعين التمعن جيداً في هذا الخيار، الذي اراه امراً مناسباً وصائباً، وضرورياً ايضاً لذلك لان التلاقي مع رموز الخبرة العالمية والاطلاع على مستواها المهني الرفيع في شقيه التطبيقي والتنظيري ظل على الدوام لصيق التطلعات الجادة التي تطمح في رؤية موضع الممارسة المعمارية المحلية مرتقياً الى مصاف الفعالية المعمارية وضمن منزلتها المهنية العالية.

ويمتلك العراق تجربة غنية ومنقطعة النظير في هذا المجال، عندما تمت دعوة خيرة المعماريين العالميين وقتذاك للمساهمة في تحقيق مشاريع الاعمار في الخمسينيات كما عدت تلك التجربة لاحقاً بمنزلة الحدث الاكثر اهمية في المشهد المعماري العالمي، اذ قلما اجتمعت نخبة معمارية عالمية تمثل عصارة الفكر المعماري الحداثي امثال: لو كوربوزيه وفرنك لويد رايت، وفالتر غروبيوس، والفار التو، وجو بونتي، ووليم دودوك، وخوسيه لويس سيرت، وقنسطنطين دوكسيادس وغيرهم من المعماريين المشهورين قلما اجتمعوا في مكان واحد، كمثل اجتماعهم على الارض البغدادية! ولا تزال اصداء تلك التجربة تدرس اكاديمياً وتحلل معمارياً كحدث مهم من الاحداث الناصعة في سجل تاريخ العمارة الحديثة، وسجل الثقافة العالمية عموماً!

وانسجاماً مع تطلعات الكثير منا لرؤية بلدنا كساحة فسيحة لاعمال بنائية واسعة ومتنوعة، ونظراً للنقص الهائل في قطاع التشييد والبناء واتساقاً مع آمال ورغبة الكثيرين من مواطنينا في التعجيل بمهام التغيير، وتجسير الهوة التي تفصلنا عن المستوى الحضاري اللائق للدول المتقدمة و توفر القدرة المادية في تامين الموارد المالية لتلك الاعمال فان امام العراق المعماري فرصة نادرة اخرى، فرصة تاريخية بأهميتها، قادرة على ان تكرس البلد كحاضنة لارفع ما انتجته الثقافة العالمية من انجازات واعني به المنجز المعماري، وان تعيد للعراق مكانته الثقافية الرفيعة والى عاصمته بغداد وجهها الحضاري الذي عرفت به طيلة تاريخها المجيد كحاضرة كبرى ومركز ثقافي مهم، مطبوع بروح المثاقفة الرفيعة والتعايش السلس للافكار المتنوعة العامرة بيئتها المادية بإنجازات معمارية طليعية ورائدة في آن!

وما يعزز مصداقية مقترح دعوة المعماريين العالميين للمشاركة في اعمال اعمار العراق، ويشير الى اهميته الثقافية كون الممارسة العالمية الحالية بتجلياتها (الما بعد حداثية)، قد وصلت الى مرحلة النضوج والاكتمال مما يجعل من مساهمات المعماريين العالميين مساهمات نوعية، حافلة بلغة معمارية فريدة، ومنطوية على اهمية تاريخية؛ تماماً مثل ما حدث في الخمسينيات عندما ساهم معماريو الحداثة، حينذاك، بتصاميم مهمة ومتنوعة ومميزة استمدت اهميتها وتميزها من خصوصية مرحلة النضوج المهني لمصمميها!

لا بد، ونحن بصدد تناول قضايا العمارة العراقية، ان نشير الى غياب فعالية النشر المعماري وما حولها. وهذا الغياب عير المبرر بات يشكل عائقاً في اتجاه نمو وتقدم النشاط المعماري في بلدنا. ونقصد بالنشر المعماري كل ما يصدر من مطبوعات تهم العمارة؛ انجازاً وتاريخاً وتنظيراً؛ سواء كان ذلك عن طريق نشر الكتب المتخصصة ام اصدار دوريات ومجلات معنية بالشأن المعماري والهندسي والفني، او في التنظيم صفحات الكترونية خاصة بالعمارة والمعماريين على الشبكة الدولية: الانترنت.

وليس ثمة داع هنا لتأكيد اهمية وخطورة فعالية النشر لترويج الافكار المعمارية الطليعية والجادة، وتأمين انتشارها سريعاً وواسعاً في اوساط معمارية وغير معمارية. واذا سلمنا بان العراق ينتظره في المستقبل القريب حركة اعمارية واسعة وشاملة، اعتماداً على وفرة وضخامة الموارد المالية المخصصة لشؤون الاعمار، فضلاً عن وجود التوق المسوغ في تجاوز سلبيات الماضي سريعاً فإن ظهور دورية وربما دوريات خاصة بالعمارة والاعمار سيكون امراً مرحباً به وفعالاً ولازماً في تعجيل حضور الخطاب المعماري العراقي الجديد، وتكريسه في المشهد الثقافي ذلك الخطاب الذي نأمل ان يكون جاداً وطليعياً وحداثياً!

وليس هناك ما يبرر اطلاقا استمرار غياب ظهور دورية متخصصة عندنا، ولا سيما بعد التغيير المجيد الذي شهده وطننا في وقت يمتلك العراق كتاباً ونقاداً كفوئين ومؤهلين لاصدار مثل هذه الدورية. ولعل التذكير هنا بمشروع المعمارية (وجدان نعمان ماهر)، ومبادرتها الشخصية الخلاقة مع زملائها المعماريين وهم: معاذ الالوسي، وسعد الزبيدي وسامان كامل وكاتب هذا السطور، وبقية ناشطين اخرين مهتمين في الشأن المعماري الذين اصدروا عام ١٩٨٩ دورية معمارية رصينة، هي مجلة (عمارة) والتي اريد لها ان تكون منبراً مهنياً حراً لعرض وتناول قضايا العمارة العراقية لعل ذلك المشروع وقبله محاولة اصدار مجلة (النار) المعمارية في بداية السبعينيات ، يؤكد حيازة البلاد لملاك جدير ومؤهل للتعاطي بكفاءة مع قضايا النشر المعماري وعدم توقف مجلة (عمارة) عن الصدور بعد نشر اعداد قليلة منها بسبب الموقف السلبي والمناوئ الذي تبناه النظام الشمولي منها، وعدم تقبله لفكرة وجود مطبوع يعمل خارج نطاق (خيمته) الكليانية والنظر بعين الخشية والريبة من صدور مجلة تتطلع الى النأي بنفسها عن آلته الدعائية الفظة الرخيصة، برغم ذلك فإن هذا لا يعني بأي حال من الاحوال تعذر او استحالة صدور دورية معمارية عراقية جادة، ومن الممكن جداً جعل الدرس التجريبي السابق الخاص بإصدار دورية عراقية تمريناً نافعاً بكل نجاحاته وإخفاقاته وجعله ليكون حافزاً ومرتكزاً اساسياً لجهة تبني وتسريع ظهور دورية معمارية مستقبلية.

ولئن اشرنا الى اهمية وجود دورية مهتمة بقضايا الشأن المعماري العراقي ضمن فعالية نشر واسعة فإننا نعتقد بان مجال تلك الفعالية ينبغي ان يتوسع ويشمل اصدار كتب متخصصة عن العمارة العراقية او العربية او العالمية والعمل بموازة ذلك على ترويج حركة الترجمة المعمارية واذا كنا مقتنعين بأهمية ورصانة المنجز المعماري العراقي فان الذي يعوزنا هو مؤلفات تضيء جوانب مهمة من ذلك المنجز الحيوي، مؤلفات وكتب بمقدورها ان تستقرئ وتحلل مؤلفات تضيء جوانب مهمة من ذلك المنجز الحيوي، مؤلفات وكتب بمقدورها ان تستقرئ وتحلل وتفسر وتؤول برصانة ايجابيات ذلك المنجز وسلبياته ويتعين علي في الاخص كوني احد الاكاديميين المهتمين في مجال التدريس المعماري والمعتنين بإشكاليات التثقيف المعماري التنويه والاشارة الى افتقاد تام للمراجع الاساسية الهامة التي تناولت وتتناول منجزات العمارة العراقية الماضية والحديثة والمعاصرة وخلو المشهد الثقافي تقريباً من أي مطبوع جاد ورصين يتعاطى مع هذا الموضوع وقد نجم عن هذا الوضع الثقافي والمعرفي الملتبس الى عدم معرفة جمهرة غالبة من المعماريين ولا سيما الشباب منهم لطبيعة ونوعية الاعمال المعمارية التي تم انجازها في العقود الماضية كما ادى ذلك الوضع الى جعل القليل منهم فقط يعي اساليب مقاربات المعماريين الرواد او يخبر اسماءهم الذين عملوا ابان تلك الفترة لغياب المؤلفات والكتب التي تتعاطى مع هذا الموضوع والمنشدة لاضاءة جوانبه الابداعية، وخلاصة القول ان عدم الاكتراث والاهتمام بهذا النشاط الحيوي الذي يعتبر لصيق الصلة بقضايا المنجز المعماري ظل وسيظل يمثل نقصاً كبيراً وخللاً واضحاً فاضحاً؟ في مشروعنا المعماري بشكل خاص، والثقافي الابستيمولوجي بشكل عام.

نعترف ان اشكالات العمارة العراقية وقضاياها المهنية كثيرة وهذه الكثرة في الغالب الاعم مردها تشابك الفعالية المعمارية مع قضايا واجتهادات عديدة لا تمت بصلة مباشرة الى موضوع العمارة واهدافها الحقيقية. وما كان لها أي العمارة الرغبة في مثل ذلك التشابك او اختيار نوعية تلك الاجتهادات لولا اقحام الدكتاتورية نفسها في قضايا النشاط المعماري المحلي بقوة وسعيها الحثيث لتوظيف منجز العمارة في تحقيق اهدافها السمجة والمنحطة وبزوال الدكتاتورية وحكمها التوتاليتاري المقيت، فاننا ننتظر غياب مبررات زج عمارتنا في مسار مليء بالمطبات العديدة التي لا داعي اليها اطلاقاً واسقاط حيثيات التشتت المهني وزوغان الاهداف الصحيحة وان تسلم عمارتنا الطريق الصائب والصحيح والذي بمقدوره فقط ان يبدع منجزاً تصميمياً حقيقياً كفوءاً ومجيداً.

لقد اشرنا آنفاً الى جملة قضايا مهنية صادفت الفعالية المعمارية المحلية ونعترف ان ثمة اموراً مهنية ذات طابع ثقافي عديدة واضافية سيتناولها باحثون اخرون مشاركون في ورشتنا المعمارية؛ والكل يسعى الى تذليل الصعاب امام مسار عمارتنا توطئة لتحقيق نجاحات معمارية مرموقة ومن المفيد هنا ان نشير الى اهمية اقرارا هيئات المجتمع ومؤسساته الرسمية وغير الرسمية بمكانة وحضور المنجز المعماري كأحد اوجه تنويعات المشهد الثقافي العراقي وان يصار الى التدليل بشكل بين وواضح الى مبدعي (نصوص) هذا المنجز والى (مؤلفيه) الحقيقيين من هنا تبدو فكرة تنظيم وتشكيل (جائزة الابداع المعماري) امراً مواتياً وصائباً لتذكير المجتمع العراقي بأهمية (المنجز المعماري) واشعار المعماريين انفسهم بقيمة واهمية منتجهم التصميمي.

وبما ان هذه الورقة لا تنشد اعطاء تصورات دقيقة عن (جائزة الابداع المعماري) المقترحة، كما لا تطمح الى صياغة نظام كامل متكامل لها، اذ ان ذلك منوط بقبول المقترح اولاً من قبل المؤسسات المعنية ومن ثم يصار الى اصدار نظام داخلي تتمتع بنوده على مصداقية قانونية تعكس نصوصه الاحساس باهمية المنجز المهني فاننا نود ان تشير بعجالة الى ما يمكن ان تشمله تلك الجائزة من مواضيع تتضمن وفق رؤيتنا ما يلي:

١- جائزة الابداع التصميمي.
٢- جائزة النشر المعماري.
٣- جائزة الحفاظ على الابنية ذات الاهمية المعمارية والتاريخية.

وكما اشرنا تواً فان تفصيل (جائزة الابداع المعماري) وتحديد فروعها وتعيين الجهة او الجهات المعنية التي تمنح هذه الجائزة وطريقة عمل لجانها ومقدار قيمتها المادية وتوقيت ميعادها وغير ذلك من الامور الاجرائية الاخرى سيكون رهناً بقبول المقترح اولاً والتسليم باهميته المهنية. ومرة اخرى نذكر بان جوائز الابداع المعمارية السنوية وغير السنوية، تعتبر امراً معتاداً ومألوفا لدى العديد من دول العالم المتحضر، كما تعد اجراءات منحها بمنزلة الحدث المهم في المشهد الثقافي لتلك الدول وهو ذاته ما نأمله لتلك الفعالية ان تكون عليه كإحدى الوقائع المؤثرة، والحدث المفرح المرجو في الخطاب الثقافي العراقي المستقبلي.

ولعل مرتجي الامنية الاخيرة المشار اليها تواً، في رؤية بلدنا حافلاً باحداث ثقافية وحضارية متنوعة ومفعماً بآمال تحقيقها هي التي املت علينا نحن الذين نتأهب شوقاً ورغبة لخدمة وطننا والعمل على رفعته وتقدمه، المشاركة في تقديم هذه الورقة المتضمنة لبعض قضايا العمارة العراقية التي نرى بان اثارتها ومناقشتها سيكون في مصلحة موضوع العمارة ومنجزها الحصيف.

قصة قصيرة

نواصي الادهاش

زيد الشهيد

لا ادري كيف اصطدت أحلام مستغانمي بشباكي الجافة ونهر بحثي الضحيل ، سوى أنني أمسكت قارورة غريبة أبلغتني حال رفع سدادتها بذاكرة متعبة وجسد شحيح مفعم بالآه .. لكن المارد الخبيء سرعان ما طغى، وطغى بسحابته فضاء الذهول.. وعلى نقيض شبيك لبيك افرد امامي سيلا من ورق ، وشلالات فائضة من هدير لغوي ، حين بللني رذاذ مفرداته شعرت بأنني استحم بأفكار عذبة / رقراقة من صور تتالت فأغدقت على ساعاتي رحيلا من ارتياح ، واذكت قاطرات ابتهاج شرعت تنقلني من محطة لأخرى ، وسفينة فضول أخذتني عبر مرافئ متراكمة : مرفأ ، فمرفأ ، أنستني كتابات الواحة وهربت من حولي أسوار الرمال المحملة بنبوءات الجفاف. (مازالت تلك الصبية تقص سنوات ارتفاعها باتجاه تخوم الشباب ، ومازالت ذاكرة الجسد تستعيد رؤى الرجل المبتور الذراع ، ولقاءها به على بورتريهات خلقها بذراعه السليمة تحكي بعضاً من تاريخ انفصال توأمها ، ولتدرك غب التتابع الصوري المشذى بالوصف الشعري والبناء السردي المتعالي بآجرات لا تنتهي من الفنتازيا أنّ لهذا الغاليري متوالية من الأسباب إخفاقاً وانكفاءات وللجسور العديدة التي حوتها اللوحات شيفرات متسلسلة من تاريخ ، وما قسنطينة إلا مكان أشار إليه باشلار رمزاً في كتابه جماليات المكان).

ولقد اغتبطتُ لذائقة محمد علي زيدان عندما قدّم لي مستغانمي جميعاً عظماً ولحماً وهواجسَ على طاولة التشريح القرائي مستجيباً لرأي طرحتهُ يوماً عن هذا الاسم الذي دفع به الإبداع إلى نواصي الإدهاش، فقال لي : ستصلك إلى الواحة.. اجلس معها، ولكن إياك أن تأكلها لأنني أكلتها قبلك ، وقبلي فعل آلاف القراء ، وحتى لو غافلتني واعتقلتها داخل قضبان اعجابك فلن تحظى بالتهامها لانّ أطباء الاستنساخ في دار الآداب صنعوا منها عشرات الآلاف .

لذا تملّ اللوحات، وحدّقْ في الجسورِ .. تابع فحوى الفتاة ، ثم لجّ غوراً دواخل الفنان ستجد بعضاً منكَ فيه (لم يقص المقطوع الذراع سفر آلامه لأنّ كبرياءه يأبى ، إنّما جاء الإفشاء على لسان المتلصصة لأعماق الآخرين تلك التي اسمها احلام ، فقد جاهرت هذه الروائية على عاتق الراوية بأسرار هي من فحوى الخصوصيات فعرت مسارات خبيئة، ودروبا مندثرة، وغرفا موصدة، وصالات راكمها الغبار، وأملا راعفا شفيفا، وامنيات لاهثة متعثرة، واغتيال تضحيات وأدا، ونيل مكاسب استحواذا، ثم خطأ وخطل المعادلة الابدية اعتمادا على ميكافيلي بعبارته الماكرة الغاية تبرر الوسيلة فقطف الورائيون فاكهة الأماميين، وصارت الفتاة من عداد الجرح الأخير لقلب الفنان/ المقاتل/الطعين). حتى إذا فتحت قلبي اعتمادا على نظرية التداعي بالمعاني لأرسطو ألفيته محتشدا بالجروح/ثخينا بسكاكين غدر الأحبة.. لذا كل ما فعلته حيال صولة القراءة في حومة يباب الواحة هو اجترار الذكرى وسكبها في عصارة الفيض السردي، بانتظار مخاض النص.

انشطارات

عبد الله حسين جلاب

السماء قبعة الارض
حافاتها اختلاف الريح
زوادتنا البحر
نرحل في التنور
فتمنحنا وردتها النار
وحين نصل الجزر
يجذبنا قلب الارض
الى النمل:
رحلته تبدأ من اغماضتنا
امن رحم الماء الى الشمس
الى وحشة التراب
رحلتنا؟
انعلم انا رماد التكوين؟
ودمعه التينة؟
الحوت: في جوفه القاع؟
خريف الغصن؟
الكوكب المنفلت؟
الكمأة؟
عمر الزهرة؟
الزنبور؟
القبرة المنحلة في البرية؟
ثوب الحية؟
الغراب القتيل؟
نجم البساتين؟
قميص القرد؟
الهدهد؟
الرسم على جدارن الكهف
وصيد الرسم؟
الباب- الصخرة:
تحرسه شجيرة السحاب؟
القدحة من حجرين؟
البغل؛ خطأ الطبيعة:
يحمل صعوده
وينتهي هيكلاً منتحراً
في الوادي؟
الجورية: رائعة الخليقة؟
الضفدعة: جاحظة القبح؟
المطعون بالتوابيت؟
وائدة الخطى؟
الحزين في قمته ذو الجناحين؟
شرنقة العذراء؟
التعويذة؟
الديناصور؟
قذيفة البركان؟
مدفن الزالزال؟
ازميل العواصف؟
الحية ام سليمان؟
درب اللاعودة؟
الذبابة؟
الخنزير البائل على الحجر المعبود؟
نبتة الظل؟
قرن الثور: تدور عليه الارض؟
تينة البحر؟
كرة الغيم في حلق الكلب؟
الاصبع الطالع من الرماد؟
عضة النهر؟
نافخة النار؟
الرويحة؟
المنشار الادرد؟
الملاك: ذائب الريش؟
المحنجل: راكل الورد؟
القبلة؟
بريد الاجنحة؟
الخوف: خالق الالهة؟
الطينة؟
الضحضاخ؟
غبرة العنقود؟
الطوطم؟
الجثام؟
عشبة الطوفان؟
شمخة؟
خمبابا؟
الـ ٧؟
القربان؟
ذرة الرمل؟
الحصاة؟
السنام؟
قطرة المطر؟
الليل الاعمى؟
النوام؟
الجرادة: المخرج حلقها؟
القمر: يتدلى بالحبل؟
لوح الطين؟
البردية؟
القوقعة؟
صخرة الاغتراب؟
دمعة التمثال؟
الببغاء؟
شفرة الجليد؟
النجمة؟
الهلال؟
الورقة المنفوضة؟
المخنوق بالموج؟
جبة الطريق؟
السمكة؟
قلادة الدرويش؟
الزنجية؟
البيضة؟
الخشخاشة؟
الكافور؟
التقويم؟
الشفعية؟
الوترية؟
وحيد القرن؟
الاعشى بالنور؟
العنكبوت؟
الحنظلة؟
الشبح؟
النطفة؟
(إقطع)
البواكير، هذي، انشطرت
في دورانها حولي، ملايين المرات:
اعملقها بالجذب
واقزمها بالطرد
المحور الكوني انا
فمن يكمل، غيري، القصيدة؟